لمحات من جهود الأمة في تقريب السيرة النبوية الكريمة خلال الشكل القصصي

د. سعد أبو الرضا[1]

فاتحـــــة:

القدوة والفاعلية من أهم سمات السيرة المعتدها – أي سيرة ناجحة - فما بالك إذا كانت سيرة رسول الله ﷺ، هادي البشرية، ومنقذ الإنسانية، ونور الله الذي لا ينطفئ، من ثم كان من الطبيعي أن تشغل كل الناس، أحبابه وأعداءه، أهله وغير أهله، الأقارب والأباعد، المسلمين وغيرهم. وقد نشأت السيرة النبوية الكريمة متفرعة من جمع الأحاديث النبوية الشريفة، وانتقلت من الإسناد الفردي إلي الإسناد الجماعي، ثم تم التخفف من الإسناد[2]، فهي سجل لكثير من أعمال الرسول ﷺ الرائدة، وتعين علي تبين التشريعات، وتهدي إلي أرقي أنواع السلوك الإنساني المتحضر، كما أنها مصدر من مصادر العبرة والاعتبار، ومحل نظر وتدبر.

من هنا فقد تعددت طرق الإفادة المباشرة منها في رصدها، وتسجيلها، وتحقيقها، وتهذيبها، وصقلها، ونشرها، وبطرق غير مباشرة في استثمارها في مجالات الفنون والآداب، لتشكيل الأعمال القصصية والمسرحية، وغيرها من الأعمال الفنية، بغية تحقيق الغايات الخلقية المنوطة بها، وإمتاع المتلقي، وتيسير التراث العربي للأجيال، كي تتصل به رغبة في المعرفة والتذوق[3]، وبحثا عن القدوة الصالحة إبان مطالع النهضة الحديثة، والأمة تستشعر حاجتها الشديدة إلي ذلك، وهي تواجه متغيرات الحياة من حولها.

وبرغم وضوح التاريخ والفن في هذه الأعمال الفنية، لكنهما يتآزران، كما تتنوع الوسائل التعبيرية في الكشف عن هذه الأبنية تنوعا وتعددا قد يوازي تعدد هؤلاء الكتاب، وما أكثرهم؛ ومنهم:

1- طه حسين:

وربما كان طه حسين من أوائل من سلك هذا السبيل إبان مطلع النهضة الحديثة في كتابه علي "هامش السيرة" بأجزائه الثلاثة في النصف الأول من القرن العشرين، مبتغيا وصلنا بتراثنا العربي، وأن يقرفي

---

[1] - رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

(2) انظر لكاتب هذه الدراسة: السيرة "فن ونماذج" ط1 1430هـ/2009م القاهرة ص12 وكذلك انظر: عبد السلام هارون: تهذيب سيرة بن هشام ط3، نشر المؤسسة العربية الحديثة – القاهرة 1396هـ-1976م ص 8، 9

(3) انظر طه حسين: علي هامش السيرة، جـــ 1 المقدمة – القاهرة 1933م.

مشاعر المتلقين الإعجاب به، وإثراء الذوق الفني لديهم، وغير ذلك من الأهداف الإنسانية والمعرفية التي أنا طها رواد النهضة ببعث تراثنا خاصة السيرة النبوية الكريمة.

وقد اعتمد طه حسين فيما قدمه علي قراءاته في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري[1]، وغيرها من المصادر التي يمكن أن تعينه علي ذلك، ولطه حسين مقدرته التي يتمتع بها في القص والتشكيل الفني للتاريخ عندما يعمل خياله وأسلوبه المتميز.

وربما كان اختياره علي "هامش السيرة" عنوانا لهذا العمل دالا على كيفية تأليفه له، فهو لا يريد أن يتعمق في السيرة وأحداثها، كما لا يريد أن يفصل فيها، لأنه كما يقول لا يريد أن يقدم علما ولا تاريخا [2]، وإنما هي صورة انطبعت في نفسه فأراد أن يقدمها للقارئ، ولما سبق أن أشرت إليه من أهداف، لكنه التزم بما التزم به السابقون ممن كتبوا في السيرة فيما يتعلق بأحداث رسول الله ﷺ وشخصيته [3].

وبداية سنجد طه حسين يكتب أحداث السيرة ومواقفها في شكل قصة يختار لها عنوانا من عنده لافتا للنظر، مثل: حفر زمزم، والفداء، والإغراء، والبر، وذو الجناحين، والوفاء المر.. وغيرها، ثم يصوغ المواقف والأحداث صياغة قصصية في نمو وتطور وتصاعد وعقدة وحل، حتى آخر موقف وآخر كلمة في هذه القصة التي تتمثل أحداث السيرة التي يختارها ويوظفها هذا التوظيف القصصي.

الشخصيات والحدث:

ويمكن أن نضرب مثالا واحدا يوضح ما سبق: وهي قصته "صريع الحسد"[4] التي يتناول فيها شخصية عمرو بن هشام بن المغيرة المسمي بأبي الحكم، والمشهور بأبي جهل، وقد كان مشركا وذا بأس في الجاهلية، وقد كان راغبا في المعرفة، متطلعا إلي مكانة بين قومه، ولذلك فقد حسد محمدا ﷺ وحقد عليه حقدا شديدا، لما كان يتمتع به في قومه من مكانة وحب وتقدير حتى لقبوه بالأمين، وازداد حقده عليه وحسده له عندما لجأ إليه القوم في حل مشكلة من ينال شرف حمل الحجر الأسود ويضعه في الكعبة عندما قاموا بتجديدها، وقد قام (الأمين) بحل هذه المشكلة عندما اقترح عليهم أن يضع لهم الحجر الأسود علي بساط، ويجعل كل قبيلة تختار واحدا منها ليمسك بطرف هذا البساط لينقلوه إلي المكان المطلوب فيضعه الرسول ﷺ، وبذلك تنال كل القبائل شرف نقل الحجر الأسود ووضعه في مكانه.

(1) انظر طه حسين: علي هامش السيرة جـ1، طـ دار المعارف – القاهرة 1943م.

(2) السابق نفسه: المقدمة.

(3) السابق نفسه ص ل.

(4) انظر السابق نفسه جـ3 ص 6

وقد كان عمرو بن هشام يتردد علي دار نسطاس الرومي ليصيب لديه الخمر، ويستمتع بغناء المغنيات لديه، كما كان يتصل بورقة بن نوفل ليسمع منه ما يتحدث به من أخبار عن النبي المنتظرﷺ.

ومن أهم الأحداث والمواقف التي ذكرها طه حسين في هذا المجال كاشفة عن شدة حقد أبي جهل وحسده، ما أصر عليه من أنه سيحمل حجرا كبيرا يلقيه فوق رأس النبي ﷺ وهو ساجد يصلي، وذلك إثر طلب زعماء قريش الرسول ﷺ، ليتفاوضوا معه من أجل أن يقدموا له ما يريد: ما لا أو ملكا أو مكانة وزعامة رجاء أن ينصرف عما يدعوهم إليه من الدين الجديد، وتسفيه آلهتهم، لكنه بين لهم أنه لا يطلب شيئا من ذلك وإنما هي الدعوة الإسلامية والإيمان بالله والحق الذي أنزل عليه.

وينظر المشركون الذين اجتمعوا بالمسجد يراقبون فعل أبي جهل عندما يسجد رسول الله ﷺ، فرأوه يعود منهزما ممتقعا لونه، مرعوبا، قد يبست يداه علي الحجر، وقذفه من يده، والنبي ساجد، لم يرفع رأسه من السجود [1]، وعندما سأله الناظرون إليه الذين سخروا من فعله وخوفه، أخبرهم أنه رأي فحلا بينه وبين رسول الله ﷺ، ما رأي أضخم منه يوشك أن يأكله.

وكذلك عندما جاء أعرابي إلي القوم في المسجد مستغيثا مستنصرا بهم، ليعينوه علي عمرو بن هشام الذي اشتري منه إبلا التوي بثمنها، فيدلونه علي النبي ﷺ سخرية واستهزاء، ويذهب النبي مع الأعرابي إلي دار عمرو طالبا منه أن يؤدي إلي الرجل ثمن إبله، فلا يلبث أن يدفع ذلك إليه، ويعود الرجل ليشكر القوم الذين دلوه علي النبي، فيمتلؤون ضحكا وسخرية، ويعجبون من أمر عمرو بن هشام الذي يحضهم علي عداوة محمد، ومحاولة التخلص منه، بل ينذر نفسه لذلك الخلاص، وعندما يسألونه عن موقفه من محمد فلا تكون إلا صورة الفحل الذي أرهبه وأرعبه من جديد هو ما دفعه إلي الاستجابة [2]، ودفع ثمن الإبل.

ما أضافه طه حسين:

وفي الوقت نفسه كانت هناك مواقف وأحداث أخري مع ما سبق تدعم موقف رسول الله ﷺ زخرت بها كتب السيرة، مثل إسلام من أسلم من الصحابة رضوان الله عليهم: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وخالد بن الوليد، بالإضافة إلي بعض الغزوات: بدر وأحد وغير ذلك، وبرغم أن هذه المواقف وأمثالها موجودة في كتب السيرة، لكن طه حسين لا يأخذها كما هي وإنما يعيد صياغتها بأسلوبه القصصي رابطابينها في تصاعد ونمو، موثقا لهذا النمو بإيجاد شخصية وهمية هي أبو مرة، التي تمثل الشيطان، وهي شخصية تَري غيرها وقد لا يراها غيرها، من ثم فقد ربط طه حسين بين أبي مرة وعمرو بن هشام، وجعله يزين له كل أفعال الشر من استثارته ضد

(1) انظر السابق نفسه ص93 وكذلك انظر عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام ط3 1396هـ – 1976م، نشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر، القاهرة ص68

(2)انظر السابق نفسه ص 95، كذلك انظر: تهذيب سيرة ابن هشام مرجع سابق ص 92.

رسول ﷺ، والحقد عليه، لأفعاله الخيرة التي تزيد الآخرين حبا له، وتقديرا لمكانته، في الوقت الذي يتضاعف فيه حسد عمرو بن هشام وحقده عليه، وإيغاله في الشر والتحدي، حتى كان مقتله في غزوة بدر [1] التي مثلت تصاعد الحدث في هذه القصة وقمة نموه وتعقيده الفني، من ثم فقد كان "صريع الحسد" وهو العنوان الذي جعله طه حسين لهذه القصة التي جسدت تحديات عمرو واستغراقه في الشر والتآمر ضد رسول ﷺ والمسلمين.

العقدة والحل:

يضاف إلي ذلك من الشخصيات التي أوجدها طه حسين شخصية نسطاس الرومي، ليساعد بها في إبراز جانب الشر في عمرو بن هشام، وفي الوقت نفسه يربط بين نسطاس وورقة بن نوفل كاشفا عن تجاوبهما في معرفة أخبار الرسول المنتظر، تلك الأخبار التي كان يتصل عمرو بن هشام ببعضها فيتضاعف الحسد والحقد في نفسه ضد محمد ﷺ، ثم يصر علي لقاء المسلمين في بدر برغم أن أبا سفيان قد أخبر مشركي قريشا أنه أمن العير، لكن عمرا بإصراره علي اللقاء، واجه عون الله للمسلمين في بدر، ورأي هؤلاء الذين ملأوا الأرض والسماء ونصروا المسلمين، وكان عمرو بن هشام من بين زعماء المشركين الذين قتلوا في غزوة بدر، وألقي بهم المسلمون في القليب، وعرفوا صدق وعد الله للمسلمين والرسول ﷺ.

وكان نسطاس قد فر راجعا إلي قومه ليخبرهم بالرسول الذي ظهر، ثم يمتد نضال المسلمين ضد أعدائهم حتى يكون لقاؤهم بالروم في "مؤتة"، بقيادة خالد بن الوليد، ويدخل عليه شيخ رومي، يلقي عليه تحية الإسلام، مما يستثير خالد، ويطلب منه أين وكيف تعلم العربية ؟ فيخبره الشيخ أنه يعرف أقرباء خالد، والده وابن عمه عمرو بن هشام بن المغيرة، فيقول له خالد لقد صرعه الحسد والبغي وغرور الشيطان، وفي الوقت ذاته يُحمل إليه عكرمة بن أبي جهل شهيدا، وبذلك يجتمع انتصار الحق، وانهزام الباطل، ويشهد الشيخ الرومي هذا الانتصار العظيم للإسلام، وهو يتلو قوله تعالي "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون" كما يرتبط ذلك بترديد الملائكة تحية لمن استشهدوا في سبيل الله قائلين لهم".

"سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين"،[2] وهكذا يوظف طه حسين آيات من القرآن الكريم في دعم بنائه القصصي للسيرة، وكذلك يتصل نسطاس الرومي مؤمنا مسلما متذكرا صديقه عمرو بن هشام الذي صرعه البغي والحسد والشيطان، كما تكون تلك نهاية منطقية فنية لقصة "صريع الحسد" حاول طه حسين فيها أن يتتبع نمو الحدث، وتصاعد خط الصراع الدرامي خلال عمله كاشفا عن انتصار الحق، وانتصار رسول الله ﷺ وارتفاع راية الإسلام، وهوي الحسد والبغي والظلم والشرك.

(1) انظر علي هامش السيرة جـ 3 ص 104، ص105.

(2) انظر السابق نفسه ص110، وانظر سورة الزمر ، آية (73) .

اللغـــــــــة:

أما لغة طه حسين القصصية فهي السهل الممتنع الفصيح، وهي الكلمة الشعرية كما يراها باحتين، وتتميز بالتصوير الفني، الذي يقرب السيرة للمتلقين، وييسر استيعابهم لها، ويُقر أثرها في نفوسهم، وقد تتضمن من العبارات ما يعتبر مصدر إثارة في رسمه للشخصية القصصية ذاتها، وهي في الوقت نفسه مثيرة للمتلقي، فإذا ما تكررت هذه العبارات ضاعفت من إحساس المتلقي بالشخصية القصصية وأثرها في بناء القصة، وتفاعله معها، مثل وصفه للخمر التي كان يصيبها عمرو بن هشام عند نسطاس الرومي أو يساقيه إياها شيطانه أبو مرة، فهي:

"خمر كأنها النار، أو نار كأنها الخمر" (1)

كما يضاعف من أثر هذه اللغة في المتلقي استثمار ألفاظ القرآن الكريم فيها استثمارا فاعلا، وذلك عندما يصف عمرو بن هشام وقد هدأت نفسه مع صاحبيه: شيبة بن ربيعة وعلي بن أمية فيقول: "حتى ثابت إليه نفسه، وسكت عنه الغضب" (2)، وكذلك وهو يصف حال عمرو بن هشام في أحد لقاءاته بورقة بن نوفل وقد أخذ يخفي عنه بعض ما يعلم من أمر محمد ﷺ يقول طه حسين: "فلما رأي الفتي منه ذلك سيء به وضاق به ذرعا، وقال في شيء من الحدة: ويحك أيها الشيخ! إنك لشديد الكآبة منذ اليوم..." (3)

كما يجعل أبا مرة "يساقيه البغض والحسد والحقد لمحمد" (4)

ولكن يظل موقف نسطاس برغم نهايته المسلمة والتقائه بخالد بن الوليد، وتذكره لمصرع عمرو بن هشام يحمل علامة استفهام، كيف تتوثق صلته بورقة بن نوفل؟ وفي الوقت نفسه كيف تكون له دار للخمر والغناء في مكة، وهو يحتفي في الوقت نفسه بأمارات الهدي والتقي والصلاح التي تجلت في لقائه بخالد بن الوليد رضي الله عنه، بعد احتفائه بظهور أمارات الرسول ﷺ مع ورقة بن نوفل في حياته إبان نزول الإسلام، بل ويصفه بأنه فيلسوف يلتمس الحق، ودیان يلتمس الدين الصحيح (5)، وهكذا يقدم طه حسين السيرة للمتلقين ميسرة جامعا بين التاريخ والفن، ومحققا للمتلقين القدوة والفاعلية والقيمة الأخلاقية الإسلامية في بناء قصصي جذاب.

2- عبد الحميد جودة السحار:

من كتبه في السيرة:

---

(1) السابق نفسه ص 103 وغيرها.

(2) السابق نفسه ص41، وانظر سورة الأعراف، آية (154).

(3) السابق نفسه صا21، وانظر سورة هود، آية (77).

(4) السابق نفسه ص.

(5) انظر السابق نفسه ص28.

ربما كان عبد الحميد جودة السحار من أوائل من قرءوا على هامش السيرة لطه حسين وأعجبوا بها، وتأثروا بها، وقد حاول أن يقدم السيرة النبوية الكريمة في شكل قصصي استجابة لعقيدته الإسلامية وحبه لرسول الله ﷺ، ورغبته في أن يفسر التاريخ تفسيرًا روحيًا، وأن يعرض حقبة مشرقة من تاريخ البشرية ارتقى فيها الإنسان حين أسلم وجهه لله، وتطهر من أدران المادية الطاغية، وقد اعتمد في كتابة ما كتب على القرآن الكريم، والحديث الشريف بصورة رئيسة، والتوراة وكتب التاريخ فيما يتفق مع القرآن، وطبيعة الدعوة خاصة فيما كتبه عن سيدنا إبراهيم عليه السلام في الجزء الخاص بذلك (1)، ثم كان هذا المنهج نفسه هو ما اتضح لديه فيما كتبه عن السيرة خاصة في كتبه:

1- محمد رسول الله والذين معه " أربعة مجلدات ".
2- أهل بيت النبي.
3- أضواء على السيرة النبوية ومقارنة بين الأديان.

وقد قرأ كثيرًا من كتب المستشرقين وغيرهم ممن تناولوا السيرة النبوية الكريمة، وناقش آراءهم.

وقد كتب ما سبق بعد أن واجهته معاناة كاتب التاريخ عندما ينهج في كتابه نهج القصة، فيكتب "قصة او ما يشبه القصة" (2) على حد تعبيره، فيهتم بالشخصيات ليبرز ملامحها، ويصور الحياة اليومية والمعتقدات والديانات، وتفاعل الشخصيات مع البيئة، ومع بعضها، كما يهتم بالخيال لسد الثغرات والفجوات التي قد تعترض التسلسل الزمني، وقد كان حريصًا – كما زعم – على أن يتناسق الخيال مع المادة التاريخية ليبرز جوهر الحقيقة ! (3) فهل تم ذلك فعلاً؟

إن هذه الكتب السابقة قد تجمع بين الكتابة القصصية للسيرة والدراسة التاريخية لأحداثها، وإذا كان الجانب القصصي التاريخي يغلب على (1، 2) فإن الجانب التحليلي والمناقشة التاريخية هي ما يغلب على رقم (3) وهو أضواء على السيرة النبوية ومقارنة بين الأديان.

وقد صدر أولاً: "محمد رسول الله والذين معه" في عشرين جزءًا ثم صدر مرة أخرى في مجلداته الأربعة، وقد بدأها بقصة "إبراهيم أبو الأنبياء" عليه السلام ليتوصل إلى إسماعيل عليه السلام وأولاده الذين كان أحدهم جدًا لمحمد ﷺ، وبذلك يتوصل الكاتب إلى الحديث عن السيرة النبوية بعد ذكر نسب الرسول ﷺ، وذلك قريب مما فعله بعض كتاب السيرة النبوية، كابن إسحق، ثم ابن هشام (4)، وإن كان عبد

---

(1) انظر عبد الحميد جودة السحار : أضواء على السيرة البوية ومقارنة بين الأديان، الناشر مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة : ص 7، سنة 1965م.

(2) انظر السابق نفسه ص 4.

(3) انظر السابق والصفحة السابقة نفسها.

(4) انظر عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام (مرجع سابق) ص 4.

الحميد جودة السحار أكثر تفصيلاً في ذكر سيدنا إبراهيم [1] للوصول إلى إسماعيل عليه السلام، وأبناء هذا الأخير ليصل إلى رسول الله ﷺ، ثم يواصل بناءه القصصي للسيرة حتى وفاة الرسول ﷺ، ثم أبي بكر، وتولي عمر، وعزل خالد، وذلك في نهاية المجلد الرابع [2].

وقد ذيل كل جزء من أجزاء هذا الكتاب بمناقشة القضايا التي يمكن أن تثيرها كتابته للسيرة، وقد يقبل رأيًا، أو يرفض آخر، مدللاً على قبوله أو رفضه، معتمدًا على بعض المصادر التاريخية التي يرجع إليها، وقد ينطلق موقفه من مرجعيته الأساسية: القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ.

بينما نجده في كتابه الثاني: "أهل بيت النبي" يبدأ بغزوة بدر ونتائجها في سرد قصصي يجمع بين التاريخ والفن، عارضًا لكثير من الأشخاص وتفاعلاتهم خلال حياة الرسول ﷺ حتى وفاته، ثم خلال حياة الخلفاء من بعده: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ثم مواقف الأمويين من علي وأبنائه – رضي الله عنهم أجمعين –، ولذلك ينتهي هذا الكتاب بمقتل الحسين رضي الله عنه وسأعرض له بشيء من التفصيل كنموذج لكتابات عبد الحميد جودة السحار في التعامل مع السيرة النبوية في شكل قصصي.

أما كتابه: "أضواء على السيرة النبوية، ومقارنة بين الأديان [3]، فليس إلا جمعا لتذييلاته على ما كتب أولاً في أجزاء السيرة العشرين، حتى إن من جمع هذه التذييلات وضعها تحت العناوين الرئيسية لهذه الأجزاء مرة أخرى، وإذا كانت هذه العناوين مناسبة لما كتبه في قصصه بأجزائها العشرين، ثم في مجلداتها الأربعة، فقد تكون غير مناسبة لما وُضع تحتها من مناقشات، لأن الرجل كان يتوسع كثيرًا في مناقشاته وقد يبتعد عن هذا العنوان الذي كان صالحًا لأي جزء من أجزاء قصصه الذي ارتبط بها، لكنه في كتابه هذا قد لا يكون مناسبًا، أو مستوعبًا للقضايا التي نوقشت تحته، وتستطيع أن تتأمل عناوينه التالية:

مولد رسول الله ﷺ، واليتيم، وخديجة بنت خويلد، ودعوة إبراهيم، وعام الحزن، والهجرة، وغزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، وصلح الحديبية، فإنه يغلب عليه هنا كما أشرت سابقًا المناقشة والتحقيق والتحليل، ويستمد الكاتب مادته من قراءاته لكتب التاريخ وتحليلات المحللين، وكتب السيرة وقراءاته في القرآن والتوراة، والإنجيل، وكتابات المستشرقين، وربما كانت هذه العناوين التي أشرت إليها ليست ذات صلة وثيقة بما تحتها، مما يتطلب من القائمين على مكتبة مصر وإصدارات مؤلفات عبد الحميد جودة السحار أن يعيدوا النظر في هذا الكتاب لضبط هذه الأمور وسلامة عرضها.

---

(1) انظر " محمد رسول الله والذين معه "، المجلد الأول ص 4، وكذلك انظر، فاطمة الزهراء الموافي، القصة عند عبد الحميد جودة السحار، نشر مكتبات عكاظ، الرياض، طـ 1، سنة 1401 هـ، 1981 م، ص 201.

(2) انظر السابق المجلد الرابع، وكذلك جزء 20 (وفاة الرسول ﷺ).

(3) انظر عبد الحميد جودة السحار " أضواء على السيرة النبوية ومقارنة بين الأديان " نشر مكتبة مصر – الفجالة، ب، ت.

أهل بيت النبي [1]:

كثرة الأحداث والاتصال والترابط في هذه الرواية:

في هذا الكتاب الذي قسمه السحار إلى تسعة وخمسين فصلاً، في ثلاثمائة وتسعين صفحة من القطع المتوسط، يحاول كتابة السيرة النبوية بطريقة أخرى في شكل روائي، ومن أهم ما تتميز به هذه الكتابة الاتصال والتواشج من بداية الكتاب إلى نهايته، وفي بداية كل فصل يلمح القارئ مرتكزه الذي يبني عليه الكاتب هذا الفصل، ثم يسرد من الأحداث ما يختاره من السيرة متصلاً بهذا المرتكز ليشكل بناء القصة التي يريدها، وهكذا تتوالى فصول الرواية في تتابع زمني تاريخي، حاملة القدوة والعبرة والعظة والتشويق والدرس التعليمي القائم على مبادئ الدين الإسلامي، وربما كان هذا ما جعل بعض المفكرين ينسب هذا العمل إلى الرواية الدينية التعليمية [2].

وهو لا يبدأ هنا بذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام، وإنما يبدأ بذكر نتائج غزوة بدر وفرح المسلمين بها، بدءًا من إرسال الرسول ﷺ زيدبن حارثة، وعبد الله بن رواحة (رضي الله عنهما) ، ليبشرا أهل المدينة بذلك النصر[3]، ومنتهيًا بأن يقرن هذه البهجة بالفرحة بزواج علي رضي الله عنه من فاطمة بنت رسول الله ﷺ (رضي الله عنهما)، وهكذا أبرز شخصية من أهم شخصيات بيت النبوة بجوار رسول الله ﷺ، ويبدأ الكاتب في رسم ملامحها، وهي شخصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه التي ستتجلى أبعادها خلال العمل كله.

ويتتبع في الفصل الثاني ميلاد الحسن والحسين إثر رؤية رأتها أم الفضل زوجة العباس، عندما رأت عضوًا من أعضاء رسول الله ﷺ يقطع ويلقى به في بيتها، وبرغم أنها أحست انقباضا وخشيت من إخبار رسول الله، لكنها ما لبثت أن كاشفته بها، فما كان منه ﷺ إلا أن بشرها خيرًا، وقال لها: تلد فاطمة غلامًا فترضعينه [4].

وربما كان هذا الحلم الذي بدأ به الكاتب الفصل الثاني من هذا العمل الروائي وسيلة فنية من وسائله للربط خلال هذا الشكل القصصي للسيرة النبوية الكريمة، وذلك ما يحاول الكاتب أن يضيفه بفنه وخبرته ليجلي أحداث السيرة التي يختارها في هذا الشكل القصصي في روايته "أهل بيت النبوة".

(1) عبد الحميد جودة السحار : " أهل بيت النبي " الناشر مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة – 1977.

(2) انظر : القصة عند عبد الحميد جودة السحار ص 277.

(3) انظر : " أهل بيت النبي " ص 5.

(4) انظر السابق نفسه ص 10.

وخلال هذا الفصل يعرض الكاتب ضروبًا من أساليب التعامل المثالية والرحمة بالأطفال التي يمكن أن يتعلمها قارئ هذا العمل القصصي، وقد تجلت في معاملة الرسول ﷺ للحسن والحسين ابني فاطمة من علي، حفيديه اللذين كان يعتبرهما ابنيه حبا ورعاية (رضي الله عنهم أجمعين).

ويحاول مشركو مكة الانتقام بعد هزيمتهم في بدر، من ثم تكون موقعة أحد في الفصل الثالث، وتربص هند بنت عتبة بحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) [1]، إثر مقتل ابنها وأخيها وزوجها وأبيها، في معركة بدر، ويقتل وحشي حمزة، فقد وعدته هند بعتقه، إن شفى غليلها بقتله، ويبرز هنا حزن الرسول ﷺ على عمه حمزة رضي الله عنه، ورغبته في التمثيل بثلاثين جثة من المشركين [2]، إلى أن يأتيه أمر الله بالعقاب بالمثل أو الصبر فيختار الصبر، وهو ديدنه ﷺ في التعامل.

وفي الفصل الرابع يعود المسلمون من غزوة بني المصطلق متوجهين إلى المدينة، وقد رجعت عائشة رضي الله عنها تلتمس عقدها الذي افتقدته دون أن تشعر به، وقد خلَّفها الركب، ثم يقبل صفوان بن المعطل يقود بعائشة الرحل، وينتهز عبد الله بن أبي بن سلول هذا الموقف ليثير الشائعات المغرضة، وتكون "حادثة الإفك" التي أصابت الرسول ﷺ والمسلمين بالقلق والاضطراب، لولا أن أظهرالله الحق بما نزل من القرآن الكريم مبرئًا ساحة عائشة رضي الله عنها وكاشفًا نفاق المنافقين وسوئهم، ومطمئنًا الرسول، وأبا بكر وزوجته أم رومان وغيرهم ممن ملأ قلوبهم الثقة في عائشة، لكنهم لا يملكون في أيديهم ما يدفع هذه الفتنة والفرية.

وهنا يوظف السحار رأي علي بن أبي طالب رضي الله عنه في دعم بنائه القصصي في هذه الرواية، عندما سأله النبي ﷺ عن رأيه في موقف عائشة، وقد أشفق علي عليه، فقال له: "يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف " [3].

من ثم يعلق الكاتب على مقولة عليّ رضي الله عنه السابقة فيما سرده قائلاً: "لقد بذر علي بقوله هذا بذرة الكره في صدر عائشة، ستنمو على الأيام، وستؤتي ثمارها يوم يقفان وجهًا لوجه على رأس جيشين متنازعين من المسلمين" [4].

وهكذا يعرض الكاتب لأحداث السيرة التي يختارها لتشكيل روايته فنيا، محققًا القدوة والفاعلية، وكاشفًا عن كثير من الشخصيات خاصة الصحابة (رضي الله عنهم)، لا سيما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم يعرض لوفاة رسول الله ﷺ، ثم خلافة أبي بكر، ثم عمر، وعثمان، وعلي (رضي الله عنهم أجمعين)، وما كان من خلافات وتجاذبات ومناقشات وأحزاب حتى آلت الخلافة إلى

(1) انظر : تهذيب سيرة ابن هشام من ص 173 : ص 194.

(2) انظر : " أهل بيت النبي" ص 17.

(3) السابق نفسه ص 21، وكذلك انظر : " تهذيب سيرة ابن هشام " مرجع سابق، من ص242 : ص 249.

(4) " أهل بيت النبي "، ص 21.

معاوية، وهوما كان يسعى إليه الأمويون منذ أبي سفيان عند وفاة رسول الله ﷺ [1]، ثم يتولي يزيد الخلافة، ومن ثم كانت مواقف هذا الأخير من بيت رسول الله حتى قتل الحسين في آخر فصل من هذه الرواية، وهو ختامها عندما اشتد سلطان الأمويين وسطوتهم، وقد تصاعد التعقيد الفني.

ولقد بذل الكاتب كثيرًا من الجهد في تشكيل هذا العمل متجاوزًا لبعض الأحداث والتفصيلات التي قد لا تتواءم مع هذا التشكيل.

لكن اهتمامه بشخصية علي بن أبي طالب، وإبراز أبعادها الجسمية والاجتماعية والنفسية كانت متكأً مهما له في تحقيق التواشج والترابط بين أجزاء هذه الرواية حدثًا وزمانًا ومكانًا وعقدة وحلا.

ولقد كان تعليقه الذي أشرت إليه سابقًا على مقولة علي بن أبي طالب ﷺ عندما أخذ رسول الله ﷺ رأيه في "حادثة الإفك"، مع ما يرتبط بغيره من مواقف علي بن أبي طالب ﷺ مشكلاً لمعظم فصول هذه الرواية وداعمًا لتماسكها وترابطها، وذلك ما حملته بقية فصول رواية "أهل بيت النبي" عندما يقتل عثمان ﷺ، ويهب الأمويون مطالبين عليًا بدمه وقد بايعه المسلمون، ثم يتهم الأمويون عليًا بالتقصير في ذلك، برغم أنه لم يكن له يد في أي شيء مما سبق، بل لقد كان رافضًا أن يقبل البيعة بهذه الخلافة[2]، بعد أن وقف مدافعًا عن عثمان في حياته، وناصحًا له، وقد جعل الحسن والحسين ابنيه يشتركان معغير هما من الصحابة في الدفاع عن عثمان وحمايته (رضي الله عنهم أجمعين)[3]، لكن مؤامرات أصحاب عبد الله بن سبأ ضد عثمان وولائه للأمويين كانت قد انتشرت في مصر والكوفة والبصرة[4]، من ثم ثار الثائرون ضد عثمان ﷺ وقتلوه، وغير ذلك مما جعل المسلمين ينقسمون ضد علي ﷺ، فالأمويون يسعون إلى الخلافة تحت زعم طلب ثأر عثمان ﷺ، وعليّ ﷺ لا يمانع في هذا الثأر الذي هو براء منه، لكن الوقت غير ملائم لذلك، والزبير وطلحة، والسيدة عائشة (رضي الله عنهم) يبغون الإصلاح، وقد خرجوا على عليّ ﷺ، كما أنهم لا يقبلون بخلافة الأمويين خاصة بعد أن بايع بعض المسلمين في المدينة ابن الزبير بالخلافة وبذلك صار مناوئًا لعليّ بن أبي طالب ﷺ.

وينتصر علي ﷺ، ويُقتل الزبير وطلحة، ويكرم علي بن أبي طالب السيدة عائشة أيما تكريم عندما يهيء لها من الحراس من يحملونها بعيدًا عن القتال إلى المدينة، وهن نساء قد تَزَيّوا بزي الرجال، وتضع الحرب أوزارها في هذا الجانب.

---

(1) انظر السابق ص 45، 80، 81، 86، وغيرها.

(2) انظر السابق، ص 96.

(3) انظر السابق نفسه ص 92، 94، 103 وغيرها.

(4) انظر السابق ص 75، 76، 89 وغيرها.

لكن الأمويين تشتد مقاومتهم لعليّ بن أبي طالب ﵁، ويجيشون الجيوش ضده، حتى يُقتل، ويستمر هذا العداء في عقبه حتى يصل يزيد بن معاوية إلى الخلافة، وقد حول الأمويون الخلافة من الشورى إلى الوراثة، ثم يقتل الحسين بن علي ﵁.

وهكذا انتهت رواية "أهل بيت النبي" وقد أبرزت شجاعة علي ﵁ واستقامته في الدفاع عن عثمان وعن الحق وعن المسلمين، واستمرار تمثله لخلق رسول الله ﷺ، ودفاعه عن الإسلام والمسلمين، ومحاولة تثبيت دعائم دولة الإسلام.

اقتران الأثر الجمالي بالتصور الأخلاقي:

وخلال هذا الشكل القصصي للسيرة كان السحار أكثر التزاما بما قرأه من كتب السيرة والتاريخ، ومن ثم كثرت في تشكيله الأحداث والشخصيات، لكنه كان موفقًا في ضبطها والتنسيق بينها، وتجلي فاعليتها، برغم ما أضافه إليها، وما وظفه من خطب هذه الشخصيات ولغتها الرصينة التي قد تحقق التلاؤم بين داخل الشخصية وخارجها وانتسابها إلى عصرها في الوقت نفسه، واستشهاده ببعض الأبيات الشعرية.

ومما يعلي من قيمة مثل هذه الأعمال الروائية أنها تجمع بين القيمتين الفنية والأخلاقية، كما يرى ت. إس إليوت ووين بوث[1] في آرائهما النقدية بصفة عامة، كما أن " محاولة جورج لوكاش بشموليتها وربطها للاشكال التعبيرية الأدبية باللحظات الفلسفية التاريخية..، قد طرحت الرواية بوصفها أداة للمعرفة وشكلاً إستتيقيا يقوم على تصور "أخلاقي" [2]، وغير ذلك مما يتفق مع توجهات السحار في قصصه.

وهكذا برز عبد الحميد جودة السحار موظفًا السيرة النبوية الكريمة في شكل قصصي، كاشفًا عن حبه وولائه لأهل بيت النبي ﷺ ومستجيبًا لقوله ﷺ في كتاب الله العزيز "قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى"[3]، وكأنه يقدم نموذجًا لهذا الولاء والحب والمودة يسترشد به المسلمون في علاقتهم بأهل بيت النبوة، كما ينبه المسلمين ليس في سبعينيات القرن العشرين فحسب – وهو وقت تأليفه هذه الرواية – ولكن في كل وقت إلى أهمية الاتحاد والتمسك بمبادئ الإسلام، وهو ما يحتاج إليه المسلمون اليوم وغدًا، وفي كل وقت.

---

(1) انظر : بلاغة الفن القصصي، ترجمة د / أحمد خليل عردات، و د / علي بن أحمد الغامدي، نشر مركز بحوث كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض 1415 هـ / 1994م، الفصل الثالث عشر : أخلاقية السرد اللا شخصي : الأخلاقية والتقنية.

(2) الخطاب الروائي، ميخائيل باختين، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع – ط 1، القاهرة 1987، ص 14.

(3) سورة الشورى، آية (23).

3- نجيب الكيلاني [1]:

اتصل نجيب الكيلاني بكثير من الروايات العربية لروادها العرب، وكثير مما ترجم من الروايات الأجنبية، كما قرأ على "هامش السيرة" لطه حسين، وما كتبه عبد الحميد جودة السحار، وغيرهما، وكان لاهتمامه بالأدب الإسلامي أثر عظيم في توجهه إلي التراث العربي، كما كان معاصرًا للسحار وغيره من رواد الرواية العربية في العصر الحديث، من ثم فقد اتصل بالتراث العربي خاصة سيرة الرسول ﷺ، وبذلك فقد جمع بين التراث والمتغيرات، واستوعب كثيرًا من التقنيات الحديثة في كتابة الرواية: كتيار الوعي، والرؤية السردية، وتعدد الأصوات، والتحليل النفسي للشخصيات، وغير ذلك.
من هنا فقد حاول توظيف السيرة النبوية في بعض رواياته منها "نور الله" في جزئين، "وقاتل حمزة"، وسأعرض لنور الله، لبيان مزياها الفنية، وأثرها في تقريب السيرة النبوية للمتلقين.
نور الله "الجزء الأول" [2]:

نور الله يجلي حركة جميع الشخصيات:

قد يشترك نجيب الكيلاني مع من سبق في توظيف السيرة النبوية في عمل روائي، لكنه يختلف كثيرًا عنهم في تشكيلها تشكيلاً روائيًا يجعله متفردًا فيما فعل، وبما فعل، ويتضح ذلك منذ اهتدائه إلى عنوان روايته، "نور الله " الذي يجلي حركة جميع الشخصيات في هذه الرواية؛ من لمس الإسلام قلبه فهو في حب وحركة واتصال بنور الله الذي يدعم الشخصية وسلوكها، أما من تنكر للإسلام وقاومه، فنور الله يكشف سقوطه، وجهله، وزيفه، وضعفه.
وخلال ذلك يبرز نجيب الكيلاني توتر الشخصية وهي تنتقل من الكفر إلى الإسلام، لتستقر بإيمانها مستجيبة "لنور الله" من ثم تكون الهداية والرشاد والولاء لدين الله ورسوله ﷺ، والدفاع عنهما، وقد يكشف عن ذلك وعي الشخصية خلال مناجياتها المختلفة [3].
ولقد وضح ذلك في مواقف كثيرة منها: هجرة المسلمين إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، كما وضح أيضًا في إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والمرأة اليهودية من بني قينقاع التي أسلمت أخيرًا، وكانت تنصح قومها قبل إسلامها بالتعقل والنظر في الإسلام، وهي شخصية أوجدها نجيب الكيلاني لبناء روايته وتشكيلها، وقد برز أثر هذا النور في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه، عندما أسلم، وهكذا كثير من الشخصيات التي يعمر قلبها نور الله.

---

(1) طبيب مصري، اهتم بالأدب الإسلامي، كتب الرواية والشعر، اهتم بالنقد الأدبي، توفي في 1995م.
(2) نجيب الكيلاني رواية " نور الله " ط 6 – الجزء الأول - مؤسسة الرسالة بيروت، وانظر قراءة أخرى لهذه الرواية في كتابي : في جماليات الأدب الإسلامي، النموذج والنظرية، طـ المجموعة المتحدة للطباعة، القاهرة 1417هـ، 1996م، ص 163.
(3) تيار الوعي في الرواية الحديثة، روبرت همفري ، ترجمة د / محمود الربيعي، دار المعارف القاهرة، سنة 1975م.

الثنائيات اللغوية:

ومن ثم كانت الغزوات: بدر، وأحد، والخندق،... وفتح مكة الذي كان نهاية الجزء الثاني من نور الله...، تلك الغزوات التي أضاء نور الله قلوب جنودها، فكان النصر...، وكشف أعداء الإسلام، فكانت هزيمتهم، وهكذا تتضح كثير من الشخصيات والأحداث التي استمدها نجيب الكيلاني من السيرة النبوية الكريمة ووظفها في روايته بطريقته، من ثم تتجلى في رواية "نور الله"، تقابلات لغوية تدعم حركة الشخصيات، وتبرز توترها مما يكشف داخلها؛ الكفر والإيمان، والبغض والحب، والهجرة والاستقرار، والقلة والكثرة، والموت والحياة، والانتصار والهزيمة... وهكذا.

فعمر بن الخطاب ﷺ مثلاً في كفره وجاهليته، يحمل سيفه ثائرًا متوجهًا للقضاء على رسول الله ﷺ، فيلتقي به نعيم بن عبد الله، ويسأله عن وجهته، فيقول له عمر: "أريد محمدًا هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله" [(1)] فيطلب منه نعيم أن يقيم أمر بيته هو أولاً، فقد أسلمت أخته فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد بن عمه، فتتحول ثورة عمر وغضبه إلى بيت أخته، فيضرب زوجها، وعندما تعترضه أخته لتكفه عن زوجها، ضربها وشجها، فيدفعه دمها الذي سال، وتحديها له مكررة قولها "افعل ما بدالك"، دفعه كل ذلك إلى العودة إلى داخله، فيسأل عن الهيمنة التي سمعها وهو يقتحم الباب، فتخبره أنهما كانا يتلوان القرآن، فيتضاعف شغفه إلى رؤية هذه الورقة، مؤكدًا لها محافظته عليها حتى يستطلع ما يتلوانه، وذلك عندما رفضت لمسه للقرآن الكريم لأنه نجس، من ثم يتهيأ متطهرًا، وكان يعرف الكتابة، وما أن يقرأ فيها سورة طه وقوله تعالى "والسلام على من اتبع الهدى" [(2)]، حتى يتسلل نور الله إلى قلبه، وتكون هدايته، ثم ذهابه إلى رسول الله ﷺ، معلنًا إسلامه.

وكان ترحيب الرسول به عظيمًا، فقد كان إسلام عمر ﷺ فتحًا للمسلمين جعلهم يظهرون علنًا عند الكعبة، وهم يصلون، وهكذا تكون الهداية بعد الضلال، والإيمان بعد الكفر، والحب لرسول الله والمسلمين بعد البغض، وتَجَلِّي توترات شخصية عمر بن الخطاب ﷺ، وذلك من الملامح التي تظهر في رسم الكيلاني لشخصياته خلال مناجياتها التي يبرزها تيار وعيها في تدفقه.

التآمر والتعقيد الروائي:

وقد كان اليهود يتآمرون ضد رسول الله ﷺ سواء بتأليب قريش وغطفان وغيرهما من القبائل ضده، لكن الله ينصره، وقد كانت موقعة "الخندق" التي كشفت تآمر قريش واليهود وغيرهما من الأعداء،

(1) تهذيب سيرة ابن هشام (مرجع سابق) ص 79، وانظر نور الله : ص 42، ص 45، 46، 47، 48.

(2) سورة طه : آية 47.

عندما جاءت الريح العاصف واقتلعت خيامهم ودمرقم، وانتصر المسلمون، وحفظوا مدينة رسول الله(1) كما حافظوا على من فيها.

وهذا التآمر مما يضاعف من التعقيد الروائي خاصة وهو عامل من أهم عوامل تشكيل رواية "نور الله"، وهو ليس على مستوى القبائل فقط، بل على مستوى الأفراد أيضًا، عندما دس حيي بن أخطب زعيم اليهود تلك المرأة اليهودية التي من بني قينقاع على عمر بن الخطاب ﷺ كي تصرفه عن الإسلام والمسلمين، وهي شخصية أوجدها الكاتب، مستثمرًا علاقات عمر بن الخطاب ﷺ في جاهليته، كما أنها امرأة ذات خبرة بالحياة والأحياء، والشر والأشرار، وما اتصلت به في ماضيها، لكنها في الوقت نفسه كانت تنصح اليهود قومها بترك التآمر، والإنصات لرسول الله ﷺ، لأنها أدركت أن الحق في جانبه، وأن نور الله سينتصر، وكان كل ذلك مما جعلها تدخل في الإسلام بعد أن فشلت مؤامرات اليهود، وعلت كلمة الله (2).

واعتماد الكاتب على مثل هذه المرأة بما تتصف به من خبرة، ودراية بالمجتمع العربي الجاهلي، وتوجهات زعمائه، واستثمار الكاتب لكل ذلك في تشكيل رواية "نور الله" يكشف ما كان يتمتع به نجيب الكيلاني من خبرة وفن بالتشكيل في التوظيف الروائي للسيرة النبوية، وتيسيرها للتأثير بها في المتلقي، لا سيما وهو يهتم بتجلي تيار وعى هذه التشخصية متدفقًا، فكشف عن داخلها وتوراتها.

ويوازن نجيب الكيلاني عن طريق "التقابل" في تشكيله بين النواحي النفسية المختلفة للشخصيات، فإذا كان هناك التآمر والقتال والحرب في بعض المواقف والشخصيات كما سبق، فهناك الإخلاص والوفاء والحب، الذي تبرزه بعض شخصيات رواية "نور الله" التي يوجدها الكاتب مثل: رابح وزوجته هند، عندما يرسم أبعادهما، ويهيئهما لإيجاد هذا التوازن الذي يخفف من حدة مواقف القتال والحرب، فقد كانا زوجين حديثي العهد بالزواج، لكن رابح المسلم القوي الإيمان يشترك مع إخوانه المسلمين في قتال المشركين، وفي الوقت نفسه لا ينسى زوجته والتفكير في سعادتها، وهكذا يجتمع الحرب والحب.

بل لقد كانت معركة أحد(3) خير كاشف عن حب المسلمين لدينهم ولرسول الله ﷺ، ووفائهم وإخلاصهم، فقد انتصروا في بداية المعركة ثم أخذوا يجمعون الغنائم، مما جعل الرماة، يتركون مواقعهم التي كلفهم رسول الله ﷺ بالبقاء فيها حماية لظهور المسلمين في الحرب، ومن ثم دار المشركون واحتلوا هذه الأماكن، فانكشف المسلمون، وتمكن منهم الأعداء الذين حققوا شيئًا من النصر، وقد جرح رسول الله ﷺ، الذي كان يحث الملسمين على الثبات في المعركة، وأن يواصلوا

---

(1) انظر تهذيب سيرة ابن هشام (مرجع سابق) ص 211، 214، 215، 224.

(2) انظر " نور الله " الجزء الأول، ص 217 وما بعدها.

(3) انظر تهذيب سيرة ابن هشام (مرجع سابق) ص 173،وما بعدها، وكذلك انظر : في جماليات الأدب الإسلامي من ص 173.

الدفاع ضد الشرك والمشركين، هذا وقد أشاع المشركون قتل رسول الله، مما دفع المسلمون إلى الالتفاف حوله ﷺ والدفاع عنه.

اتساع الرؤية السردية:

وهذه الشخصيات والأحداث التي اختارها الكاتب من السيرة النبوية، لا يربط بينها التتابع الزمني التاريخي فحسب، ولكن يوثق بينها في الاتصال ارتباط المقدمات بالنتائج، وفنية التشكيل الروائي، وإدارة رسول الله ﷺ للأمور، وتربيته للشخصيات، وكونه القدوة الصالحة، والفاعلية الموجهة، وذلك مما وسع "الرؤية السردية" لتشمل الحاضر، وتتسع هذه الرؤية للمستقبل؛ لقياس الحاضر على الماضي في ضوء حاجة المسلمين اليوم وغدًا لكثير من المبادئ والقيم والتشريعات التي جاء بها الإسلام، ودعمتها الرؤية الآنية والمستقبلية في كثير من القضايا التي واجهها السلف الصالح (رضوان الله عليهم)، بقيادة رسول الله ﷺ وتوجيهاته وإرشاداته، وقد أبرزها الكاتب في روايته.

الجزء الثاني:

اتساع مساحة نور الله (مكانًا، وأشخاصًا، وأحداثًا):

تنتهي رواية "نور الله" في جزئها الثاني بفتح مكة، بعد أن أشار نجيب الكيلاني إلى غزوات: بدر، وأحد، والخندق،... وغيرها في الجزء الأول من هذه الرواية، وليس التسلسل التاريخي فقط هو الرابط بين الأحداث ونموها وتصاعدها، لأن الكاتب يعتمد على ربط النتائج بالمقدمات، سواء في تشكيل الحدث أو حركة الشخصيات، بالإضافة إلى "نور الله" الذي قد شغل كثيرًا من المواقع اللغوية في تشكيل الرواية بجزئيها وصياغتها [1].

وأبو سفيان خير شاهد على ذلك، فقد أراد أن يدرك رسول الله ﷺ في المدينة؛ لكي يجعله يوافق على امتداد ما بين المسلمين والمشركين من عهود، كأن يمتد صلح الحديبية، خاصة بعد عدوان بكر أحلاف المشركين على خزاعة أحلاف رسول الله، وقد توجه من أجل الاعتذار للرسول ﷺ، فلم يجد من يحمل وساطته ويشفع له ليقنع رسول الله ﷺ بقبول اعتذاره، فقد رفض أبو بكر أن يكلم الرسول في ذلك، وقد كان موقف عمر وعثمان وعلي مثله (رضي الله عنهم).

أما ابنته أم حبيب زوجة رسول الله ﷺ، فقد رفضت جلوسه على فراش رسول الله حتى لا ينجسه بكفره، وأخيرًا يرجع بخفي، مما يجعل زوجته هند بنت عتبة وغيرها من المشركين يسخرون منه، وهو زعيمهم، ولم يجد سوى ابن عباس رضي الله عنه ليشفع له عند رسول الله فيرضي شيئًا من كبريائه في فتح مكة، من ثم يجعل رسول الله "من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن"، وكان هذا الموقف من أمارات سماحة رسول الله ﷺ، وعفوه عمن أساؤوا إليه، وذلك عندما دخل مكة ظافرًا منتصرًا، فيطهرها من

(1) انظر " نور الله " جـ 2 لفظة " النور " على سبيل المثال في الصفحات : 41، 42، 192، 196، 197، 198، 220، 221، 286، 287، 288، 358، 380، 381، 383.

الأصنام، وكان هذا الفتح هو الحل التاريخي الفني لعقدة هذه الرواية، بعد أن اشتد صراع الشرك والكفر ضد "نور الله" وقد اتصل به أخيرًا أبو سفيان عندما أسلم.

وإذا كان عدد المسلمين في غزوة بدر في الجزء الأول حوالي "ثلاثمائة رجل تقريبًا"، فقد كان عددهم في فتح مكة في الجزء الثاني "عشرة آلاف تقريبًا"، وذلك مما يرتبط بانتشار "نور الله" واتساع مساحته مكانًا، وأشخاصًا، وأحداثًا، ومن ثم كانت الرواية في جزئين، لتتسع لنمو الحدث وتصاعده.

وقد دعم الكاتب بناءه – في الجزء الثاني – بكثيرٍ من "علاقات التماثل والتخالف" بين الأشخاص، وتجلت في فاعليتها وقوة اتصالها "بنور الله"، وموقف رسول الله ﷺ منها، مثل زينب ابنته، وهي زوجة أبي العاص بن الربيع وقد دخلت في "نور الله"، بينما كان زوجها مشركًا، وقد أُسِرَ في بدر، فأرسلت زينب فديته ومنها قلادة لزينب كانت السيدة خديجة (رضي الله عنها) قد أهدتها إليها في زواجها، وعندما رآها رسول الله ﷺ عرفها، فرَقَّ لها رقة كثيرة، وعرض على المسلمين قبول الفداء، على أن يطلق أبو العاص زينب، وتُرد إلي أبيها، وقبل أبو العاص ذلك، برغم حبه لزوجته، وظل على كفره حتى سدد ما عليه من ديون لقريش، ثم أسلم وعاد إلى زوجته، الحريصة عليه، والحريص عليها، وهكذا جمع بينهما "نور الله"[(1)].

بينما كانت هناك زينب بنت الحارث اليهودية [2] زوجة سلام بن مشكم زعيم يهود خيبر، ابتعدت عن "نور الله" وأخذت تتآمر ضد رسول الله ﷺ والمسلمين، بالإضافة إلى تآمر زوجها ويهود خيبر، وقد سجل لها زوجها شطط سلوكها، الذي لاحظته عليها غيرها من النساء، وقد قتل زوجها، ثم ارتبطت بفهد أحد العبيد، وكأنها تعيد قصة وحشي، هذا وقد اتفقت معه على قتل رسول الله ﷺ وأسلمت له نفسها، بل تمنت الزواج منه، بعد موت زوجها، ثم أعلنت إسلامها، وقامت بعمل وليمة لرسول الله والمسلمين، ووضعت فيها السم، الذي اكتشفه المسلمون، وانتهت حياتها بقتلها، وقد نالت جزاءها.

ومع هذا الصراع الذي ينتصر فيه "نور الله" بعد أن اشتد بين المسلمين واليهود، ويتضاعف التعقيد الروائي، خاصة بعد أن تخلص منهم رسول الله ﷺ في المدينة لنفاقهم، لينتهي تآمرهم بقتل سلام بن مشكم في خيبر، ثم زوجته زينب بنت الحارس، وقد دانت خيبر للمسلمين.

التوازن الإنساني للمشاعر:

ودائمًا ما يُقرن نجيب الكيلاني في روايته بين الحرب والقتال من ناحية، والبهجة والحب من ناحية أخرى ليحدث التوازن الإنساني للمشاعر الذي يدركه المتلقي، وهو يتتبع قصص السيرة النبوية، ويريد الكاتب أن يقر ذلك في مشاعر المتلقي، وهو ما وجدنا نظيرًا له بصفة عامة عند طه حسين في

(1) انظر تهذيب سيرة ابن هشام ص 166، 168 (مرجع شابق) وكذلك انظر " نور الله " جـــ2 ص 380.

(2) انظر " نور الله " جـــ2 ص 101، 170، وكذلك انظر تهذيب سيرة ابن هشام (المرجع السابق) ص 264.

"على هامش السيرة"، كما وجدنا نظيرًا له أيضًا عند عبد الحميد جودة السحار في روايته "أهل بيت النبي" وهو يجمع بين بشرى انتصار المسلمين في "بدر" وزواج علي بن أبي طالب ﷺ من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ونجده أيضًا عند نجيب الكيلاني، وهو يعرض لزواج رسول الله من بعض أمهات المؤمنين، فالسيدة صفية[1] – مثلا – يتزوجها رسول الله ﷺ بعد خيبر في موقف إنساني يكشف عظمة رسول الله ﷺ وسمو زوجاته، فالسيدة صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وكلاهما كانا زعيمين في قومهما، وقتلا، وهما من يهود بني النضير، ويخيرها رسول الله بين العتق والزواج منه ﷺ، أو تذهب لقومها، فتختار رسول الله، خاصة وقد وظف الكاتب الحلم في ارتباطها "بنور الله"، عندما رأت في منامها قمرًا يأتي من يثرب ويسقط في حجرها، وعندما يذكرها رسول الله بموقف أبيها تستشهد بقوله تعالى "ولا تزر وازرة وزر أخرى" [2] فيتزوجها رسول الله ﷺ لرجاحة عقلها، وعله يستل بذلك حقد قومها على الإسلام والمسلمين.

وموقف أبي بصير الذي أسلم وهاجر سرًا إلى المدينة، وكانت شروط صلح الحديبية تفرض على رسول الله أن تسترد قريش من يهاجر منها مسلمًا إلى رسول الله، وترسل قريش في طلب أبي بصير، وفعلاً يطلب منه رسول الله ﷺ أن يعود برفقة من أرسلته قريش لأجل ذلك، وفي الطريق يتشاجران ويقتل أبو بصير من أرسلته قريش، ويفر إلى شاطئ البحر الأحمر ويستقر في "العيص"، وهناك يشكل جماعة لحماية الفارين من قريش ليتمتعوا بحريتهم، وفي الوقت نفسه يقضون مضاجع القريشيين بمهاجمة تجارتهم حتى ضجت قريش نفسها، وطلبت من رسول الله إلغاء هذا الشرط؛ ليختار كل فرد بحريته ما يريد من بقاء مع قريش أو مرافقة الرسول ﷺ والهجرة إليه في المدينة إيثارًا "لنور الله".

العقدة والحل:

وبرغم أن كل ما سبق في روايت "نور الله" أحداث قد تبدو متفرقة لكن "نور الله" كما أشرت في البداية يجمع بينها ويربطها إيجابًا بالالتزام به، والعيش في ظل دين الله والولاء للإسلام ولرسوله وللمسلمين، أو البعد عنه إلى التيه والضياع، حتى كان فتح مكة قمة تصاعد التعقيد، وهو حل عقدة هذه الرواية، بعد أن وظف المؤلف ما اختار من أحداثها خلال عدة تقنيات روائية، كتيار الوعي، والحلم، وتحليل الشخصيات، والاسترجاع الذي ظهر في ربط الشخصية بين حاضرها السردي وماضيها التاريخي، وغير ذلك.

---

(1) انظر : تهذيب سيرة ابن هشام ص 261، 265، 379، 382، 384.

(2) سورة الأنعام، آية (164).

اللغـــــــــة:

تميزت لغة نجيب الكيلاني بأنها لغة تصويرية، كما تقترض من القرآن الكريم بعض مفرداته وتراكيبه، لإثراء دلالات روايته [1].

وقد تُحقق قدرًا من الشعرية التي ترقى بصياغتها وأسلوبها في الكشف عن الرؤية السردية، والتأثير في المتلقي بما تبرزه من مبادئ وقيم وولاء للرسالة والرسول ﷺ.

خاتمـــــــــة:

هكذا يتعدد كتاب قصص السيرة النبوية الكريمة وتوظيفها روائيًا، في نماذج متعددة، بعضها قد يركز على الحدث مثل رواية نجيب الكيلاني "نور الله"، وبعضها قد يركز على الشخصية أو الشخصيات مثل بعض قصص طه حسين في "على هامش السيرة"، ورواية عبد الحميد جودة السحار "أهل بيت النبي"، وذلك برغم ما بين هذين الركنين وغيرهما من العناصر السردية من ارتباط وثيق، يمكن أن يتجلى أيضًا فيما عرضناه من القصص السابقة.

وهؤلاء الكتاب جميعًا قد يتباينون فيما يختارون من أحداث السيرة النبوية الكريمة وشخصياتها، لكنهم جميعًا يبتغون تقديم صورة مشرقة مثالية لرسول الله ﷺ، لأن الأمة بحاجة إلى تمثل القدوة الصالحة والفاعلية والإيجابية في حياتها في كل وقت، وتمثل الدين الإسلامي بقيمه ومبادئه، والاقتداء برسول الله ﷺ هو ما يحقق هذه الغايات والأهداف، بالإضافة إلى ما يقدمه الصحابة (رضوان الله عليهم) من سلوك ونصائح، وتوجيهات تتمثل مبادئ الدين الحنيف وأفعال رسول الله ﷺ وأقواله.

من ثم فقد اتجه هؤلاء الكتاب إلى السيرة لتيسيرها وتقديمها للمتلقين، وقد تعددت كتابات كل فرد منهم، فطه حسين يكتب "على هامش السيرة"، "والوعد الحق" مثلاً، وعبد الحميد جودة السحار يكتب السيرة في "محمد رسول الله والذين معه" في أربعة أجزاء، كما يكتب "أهل بيت النبي"، ونجيب الكيلاني يكتب "نور الله"، "وقاتل حمزة"، وهكذا.

وقد اخترت هؤلاء الكتاب الثلاثة لتجلي توجههم إلى تيسير السيرة النبوية خلال الشكل القصصي، واتصالهم بتقنيات السرد الحديثة، برغم أن هناك كثيرين حاولوا توظيف السيرة النبوية في أعمال قصصية، مثل الشيخ أبي الحسن الندوي في الهند، والشيخ علي الطنطاوي في سوريا، لكن أولهما كان يبتغي تقديم نماذج من الأدب العربي الأصيل كما فعل في كتابه "مختارات من آداب العرب"، بجانب

(1) انظر " نور الله " جـــ 1 – الفصل الخامس والعشرين، وغيره وكذلك جـــ 2 – الفصل الثلاثون وغيره.

حرصه على إبراز قيم الإسلام وأخلاق رسول الله ﷺ، وكذلك في كتابه "السيرة النبوية"(1)، الذي طبع عدة طبعات، والشيخ علي الطنطاوي قد فعل ذلك في بعض قصص كتابه "قصص من التاريخ الإسلامي" يكشف في بعضها عن قيم الإسلام ومثالية رسول الله ﷺ، والندوي والطنطاوي كلاهما قد هيمن عليهما الاتجاه الدعوي، ومحاولتهما التوفيق بين الدعوة والفن فيما كتباه.

من أهم المصادر والمراجع:

1- أضواء على السيرة النبوية ومقارنة بين الأديان: عبد الحميد جودة السحار، نشر مكتبة مصر – الفجالة – القاهرة - سنة 1965م.

2- أهل بيت النبي (رواية): عبد الحميد جودة السحار، نشر مكتبة مصر – الفجالة – القاهرة سنة 1977م.

3- بلاغة الفن القصصي: وين بوث، ترجمة د/أحمد عردات، ود / علي بن أحمد الغامدي، نشر مركز بحوث كلية الآداب – جامعة الملك سعود، الرياض سنة 1415هـ، 1994م.

4- تهذيب سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون، طـ 3، نشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر، القاهرة، سنة 1396هـ، 1976م.

5- تيار الوعي في الرواية الحديثة: روبرت همفري، ترجمة د / محمود الربيعي، دار المعارف – القاهرة – سنة 1975م.

6- الخطاب الروائي: ميخائيل باختين: ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، طـ 1، القاهرة – سنة 1987م.

7- السيرة فن ونماذج : د / سعد أبو الرضا، ط 1، القاهرة سنة1430 هـ، 2009م.

8- الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات، أعدت بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية المنعقد في استانبول بتركيا، مؤسسة الرسالة بيروت، دار البشير عمان الأردن.

9- على هامش السيرة: طه حسين، دار المعارف، القاهرة، سنة 1943م.

10- في جماليات الأدب الإسلامي: سعد أبو الرضا، طـ المجموعة المتحدة، القاهرة، سنة 1417هـ، سنة 1996م.

(1) انظر ما كتبه د / محمد حسن الزير في : الشيخ أبو الحسن الندوي : بحوث ودراسات أعدت بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية سنة 1417هـ، 1996م، والمنعقد في استانبول بتركيا، مؤسسة الرسالة بيروت، دار البشير عمان الأردن، ص 425 إلى 486، وكذلك انظر د / عماد الدين خليل : الكتاب السابق نفسه ص 43 إلى 55.

11- القصة عند عبد الحميد جودة السحار: فاطمة الزهراء الموافي، نشر مكتبات عكاظ، الرياض، السعودية، سنة 1407هـ، سنة 1981م.
12- نور الله (رواية) (ج 1، ج 2) : نجيب الكيلاني، ط 6، مؤسسة الرسالة بيروت، ب. ت.